بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

دفرسوار

للدكتور إبراهيم أنيس

برز الاسم « دفرسوار » فجأة فى أثناء معركة رمضان ، وأصبح على كل لسان فى تلك الأيام المريرة ، مرتبطا – ويا لسخرية القدر – باسم البحيرات المرة ! !

وجذبنى الاسم بوصفى لغويا جذبا قويا ، لغرابتـــه أولا ، ولما يوحى به جرسه من صلة وثيقة باللغة الفرنسية ، لغة « ديليسبس » المهندس الفرنسى الذى خطط لمشروع قناة السويس ، وتولى تنفيذها مستغلا فى ذلك عرق العمال المصريين ودماءهم ! !

وشرعت أتساءل عن تأصيل الاسم « دفرسوار » الذى ظل وحده بين أسماء منطقة القنال ؛ يحتفظ بتلك المسحة أو السحنة الأجنبية عنا ! !

وبرغم ما كنت أعرفه عن الطريق الشائك الذى تحفّ به كل دراسة تعرض تفاصيل الأسماء أو الأعلام ، فهى دراسة جذابة جدا ، شائقة جدا ، تشد نحوها كثيرا من الباحثين فى اللغة شدا عنيفا فكأنها قوة مغناطيسية لا يستطيع معها فكاكا ، ولكنها مع ذلك محفوفة بالمزالق ومواضع الزلل .

وتذكرت ما قام به أحد علماء العربية فى أوائل القرن الرابع من الهجرة هو ابن دريد فى كتاب له مشهور سمّاه « الاشتقاق » ، وحاول فيه تأصيل الأعلام فى شبه الجزيرة العربية من أسماء القبائل والأمكنة : فأسرف على نفسه وعلينا ، وجاءنا بقدر كبير من الحدس والتخمين ، وبأصول ما أنزل الله بها من سلطان ، أصول لا يملك الباحث الحديث إزاءها إلا أن يبتسم أو يسخر لسذاجتها وما فيها من تكلف وتعنت ! !

وتذكرت كذلك تجربة سرت أمامى فى أثناء دراستى بلندن ، حين وفد إلى أستاذنا هناك طالب يابانى ، وقد بلغ به الحماس مبلغه إلى البحث فيما أسماه : الكشف عن الكلمات الإنجليزية التى دخلت اللغة اليابانية ! !

وظل يعمل شهورا عسى أن يعود بتلك الكلمات إلى أصولها من حيث الأصوات أى « فوناتيكيا » ، ومن حيث الدلالة أى « سمانتيكيا » ، ثم ظهر بعد الجهد المضنى أن الكلمات التى حسبها إنجليزية الأصل ليست إلا كلمات يابانية التقطها بعض البحارة الإنجليز فى سنين طويلة من شواطئ اليابان ، ثم « جلنزوها » أى خلعوا عليها صبغة إنجليزية أفقدتها كثيرا من معالمها الأصلية :فلما عادت تلك الكلمات إلى اليابان فى أفواه البحارة الإنجليز ، وفى صورتها الجديدة ، أنكرها أهلها ، ولم يتعرفوا عليها ،وظنها الطالب اليابانى إنجليزية الأصل. وهكذا ردّت إلى اليابان بضاعتها.

وكان أستاذنا حينئذ يحذرنا من عملية تأصيل الأعلام ، وينصحنا بأن نلتمس طريقنا معها على مهل ، ومع قدر كبير من الحيطة والتريث ، وطول التأمل والتفكير .

أقول : برغم كل ذلك وجدتنى لا أستطيع الفكاك من أسر الاسم « دفرسوار » وسحره ، وبدأت أفكر فى محاولة لتأصيله .

وكان علىّ فى هذه المحاولة أن ألجأ إلى بعض المشهور من المعاجم التاريخية للغة الفرنسية ، وإلى وثائق التاريخ الحديث ، ثم ربما فوق هذا وذاك ، إلى بعض من كتبوا عن جغرافيه هذه المنطقة . فشهدت عجبا ! !

فقد ظهر أولا من الخرائط التى رسمها « ديليسبس » للمنطقة قبل حفر القناة ، وهى الخرائط المحفوظة بمكتبة جامعة القاهرة ، والمنشورة تحت عنوان :

Percement de l'isthme de Suez

أن « ديليسبس » نفسه قد كتب فى مكان جنوبى « السرابيوم » ، الكلمة الفرنسية Réservoir ، وهو المكان المعروف الآن بالاسم « دفرسوار » ! !

وظهر كذلك من كتاب ألفه المهندس فؤاد فرج عن منطقة القنال ومدنها[1] ما نصه :

« وكانت البحيرات المرة قبل حفر القناة عبارة عن مستنقع منخفض حول قاعه غابة كثيفة من شجر الأَثل اسمها العَمْبَق » .

وبالرجوع إلى المعجم العربى المشهور لسان العرب ، اتضح لنا مع الدهشة والاستغراب أن « العمبق » فى أغلب الظن من الكلمة العربية « العنبقة » بمعنى مجتمع الماء والطين ! ! ولا حاجة بنا هنا إلى التذكير بأن النون الساكنة التى بعدها « باء » تسمع فى آذاننا نحن أبناء العربية « ميا » .

نحن إذن إزاء منطقة عرفت قبل حفر القنال ، بأنها منطقة مستنقعات وبرك ، واستغلت فى فتح القتال كمستودع يملأ بالمياه وقت المدّ فيساعد على الملاحة ، أو كما يعبر المهندس فؤاد فرج فى كتابه بما نصه[2] :

«ووجود البحيرات المرة فى طريق المشروع يجعل منها حوضا طبيعيا مساحته ٢٨٠ مليون متر مربع اتسع عند ارتفاع المدّ بمقدار مترين فى البحر الأحمر ٥٦٠ مليون متر مكعب من الماء . وهذه تساعد الملاحة بشكل واضح لارتفاعها فوق منسوب مياه البحر الأبيض المتوسط » .

---

(١) المجلد الثانى ص ٢٥ . (٢) ص ٢٠٦ .

ثم رجعنا إلى المعجم التاريخى الفرنسى (معجم روبير) للبحث عن دلالة كلمتين هما :

(١) Réservoir وهى التى وجدت فى خرائط « ديليسبس » .

(٢) Déversoir وهى الكلمة التى قفزت إلى الذهن لأول وهلة ، وتبين لنا أن هذا المعجم يذكر بين معانى الكلمة الأولى معنى « بركة أو مستنقع » ، ويذكر أن من معانى الكلمة الأخرى « منفذ تنصب من كمية ضخمة من المياه التى فى قناة أو بركة » .

ويشير المعجم إلى أن بدء استعمال الأولى فىاللغة الفرنسية هو منتصف القرن السادس عشر ، وأما الكلمة الأخرى فلم تعرف فى الفرنسية إلا فى منتصف القرن الثامن عشر ! !

ووقفنا إزاء كل هذه المعلومات حائرين نتساءل : أى الكلمتين هو الأصل الأصيل للاسم دفرسوار ؟ ! ولم نجد مناصا من أن نفترض أحد فرضين :

أولهما : أن نختصر طريق البحث فنقول إن الكلمة Déversoir هى الأصل ، ولم يتغير منها إلا حرف الـ (V) الذى لا تعرفه العربية ، فأصبح فاء ، وإلا تعديل طفيف فى نظام المقاطع ، لأن المقطع (Vers) لا يقع أبدا فى وسط الكلمة العربية . فلما عدلت المقاطع إلى ما يتفق مع مقاطع لغتنا العربية أصبح المقطع الأول « دِفْ » ، والثانى « رِسْ » ! ! غير أنا ترددنا قليلا فى قبول هذا الفرض ، لما شاهدناه فى الخرائط من أن موقع مدينة الإسماعيلية يشبه تمام الشبه موقع المكان المعروف باسم « دفرسوار » ، فالأولى فى الطرف الشمالى الغربى من بحيرة التمساح ، والدفرسوار فى الطرف الشمالى الغربى من البحيرات المرة . ومع ذلك لم يطلق الاسم « دفرسوار » إلا على المكان الخالى ! ! هذا إلى أن المعجم الفرنسى لم يشر بين أمثلته — على غير ما كان متوقعا — إلى الكلمة Déversoir كمكان محدّد فى القنال ، مع أن الكلمة قد عرفت فى اللغة الفرنسية قبل فتح القنال بنحو قرن من الزمان ! !

ثانيهما : وأما الفرض الثانى فى رأيى أنه أكثر احتمالا ، لأنه يعتمد أساساً على ما يشاهد فى خرائط «ديليسبس» ، ثم على ما وصفت به الطبيعة الجغرافية لهذه المنطقة قبل فتح القنال وبعد فتحها من أنها منطقة مستنقعات وبرك .

ويتحتم لذلك أن نقول إن الموضع الذى كتب عليه فى خرائط ديليسبس كلمة Réservoir قد ظهر لمهندسيه ومساعديه فى أثناء الحفر أنه موقع فيه بعض البرك والمستنقعات ، فاتخذوها بمثابة مستودعات للمياه ، وأطلقوا عليها التعبير الفرنسى Des Réservoirs (دِرِسِرْفْوار) ! ! ومن هنا جاء الاسم المألوف لنا الآن ! !

وعلى أساس هذا الفرض يمكن أن نوضح كيف أن « دِرِسِرْفْوار » قد صارت « دِفْرِسْوار » . وهنا أقرر مطمئنا أن الناطق العربى يعمد عادة إلى اختزال بعض مقاطع الكلمات المسرفة الطول ، فيسقط منها ما لا يخلّ بالمعالم الأصلية ، وكان ذلك بحذف المقطع الرائى الأول . فأصبحت الكلمة (دِسِرْفْوار) ثم حدث تعديل طفيف فى المقاطع وأصبح لدينا جذر رباعى فى أول الكلمة و « دِسْرِفْ » . وعن طريق تلك الظاهرة التى عرفت قديما باسم القلب المكانى ، ولدى الأوربيين باسم metathesis تغير ترتيب الحروف وأصبح الجذر الرباعى « دِسْرِف » على صورة « دفْرِس » وبقى المقطع الأخير للكلمة الأصلية وهو « وَارْ » كما هو فى كل الحالات!

وأما السرّ فى حدوث ذلك القلب المكانى فى ترتيب الحروف فنعزوه فى دراستنا الحديثة إلى اختلاف نسبة الشيوع بين السلاسل الصوتية فى جذور لغتنا العربية . وقد دلتنا على ذلك إحصاءات الحاسب الإلكترونى فى دراسة إحصائية حديثة لجذور لغتنا العربية مؤسسة على أشهر المعاجم العربية القديمة . ونتخذ نحن اللغويين هذه الإحصاءات الآن بمثابة المسطرة الحاسبة للمهندسين ! !

وبالرجوع إلى هذه الإحصاءات تبين لنا أن السلسلة الصوتية « دِسْرِف » أقل شيوعا ، وبشكل واضح من السلسلة الصوتية (دِفْرِس » .

ولا عجب إذن أن السلسلة الصوتية الثابتة تسبق إلى اللسان العربي حين يحاول النطق بالسلسلة الأُولى ، ومن هنا جاء الاسم « دِفِرْسوار » ! !

وليس مثل هذا الفرض بأكثر غرابة حين يقارن بما نعرفه عن المراحل المعقدة التى مرت بها بعض الأسماء والأعلام على ألسنة الجماهير فيما مضى . ويكفى هنا أن نتذكر أن مدينة « حلب » قد أصبحت فى ألسنة الأوربيين « أَلِبّو » ! ! وأننا كنا فى عهد قريب نسمع القاهريين يتحدثون عن « الأُورْنُس » فى العباسية ويريدون به الكلمة الإنجليزية ordnanc ! ! وربما من ذلك أيضا أن التعبير الإنجليزى Work - shop قد أصبح فى ألسنة المصريين « ورشة » .

وبعد : فلست أهدف من وراء هذا التأصيل إلا إلى تفجير المشكلة ! لعلّ هناك من يهدينا إلى ما لم يكن قد اهتدينا إليه ،

مايو ١٩٧٤ وبالله التوفيق

المشرف على المجلة

ابراهيم أنيس